اثر الشئون الاجتماعية فى خصائص اللغة وتطورها
بوصفها أهم وسيلة للأعلام

الاستاذ الدكتور على عبد الواحد وافى

اثر الشئون الاجتماعية فى خصائص اللغة وتطورها[1] بوصفها أهم وسيلة للأعلام

تتأثر اللغة فى خصائصها وتطورها بعوامل كثيرة ، يرجع أهمها إلى الشئون الاجتماعية ، وهى التى تتمثل فى حضارة الأمة ، ونظمها ، وعاداتها ، وتقاليدها ، وعقائدها ، ومظاهر نشاطها العملى والعقلى ، وثقافتها العامة ، واتجاهاتها الفكرية ، ومناحى وجدانها ونزوعها .. وهلم جرا .... وسنقصر بحثنا على هذا النوع من العوامل .

١ــ فكلما اتسعت حضارة الأمة ، وكثرت حاجاتها ومرافق حياتها ، ورق تفكيرها ، وتهذيب اتجاهاتها النفسية ، نهضت لغتها وسمت أساليبها ، وتعددت فيها فنون القول ، ودقت معانى مفرداتها القديمة ، ودخلت فيها مفردات أخرى عن طريق الوضع والاشتقاق والاقتباس للتعبير عن المسميات والافكار الجديدة .. وهلم جرا . واللغة العربية أصدق شاهد على ما نقول . فقد كان لانتقال العرب من همجية الجاهلية إلى حضارة الإسلام ، ومن النطاق العربى الضيق الذى امتازت به حضارتهم فى عصر بنى أمية الى الأفق العالمى الواسع الذى تحولوا إليه فى عصر بنى العباس ، كان لهذين الانتقالين أجّل أثر فى نهضة لغتهم ورقى أساليبها واتساعها لمختلف فنون الأدب وشتى مسائل العلوم .

٢ــ وانتقال الأمة من البداوة الى الحضارة يهذب لغتها ، ويسمو بأساليبها ويوسع نطاقها ، ويزيل ما عسى أن يكون بها من خشونة ، ويكسبها مرونة فى

---

(١) عرضنا لهذا الموضوع فى الفصل الأول من كتابنا « اللغة والمجتمع » . ويمتاز بحثنا هذا بزيادات كثيرة عما جاء فى هذا الفصل ، كما يمتاز بالتنقيح والتلخيص فى الموضوعات المشتركة بينهما .

التعبير والدلالة . وأن موازنة بين حالة اللغة العربية فى عهد بداوة العرب قبل الإسلام وحالتها فى عهد حضارتهم الاسلامية ، أو بين ما كانت عليه عند أهل البادية فى عصر ما ، وما كانت عليه فى الحُضَر فى العصر نفسه ، لاصدق برهان على ذلك . وإن البدوى الذى لم يلهمه شيطانه فى مدحه للأمير أحسن من قوله :

انت كالكلب فى حفاظك للعهـــد ،وكالتيس فى قراع الخطوب

ثم اخذ يشبه مظاهر مجد الأمير بنظائرها عند الحيوان المستأنس وغيره ، هذا البدوى نفسه قد استطاعت قريحته ، بعد ن هذبتها حضارة بغداد ، أن تجود بمثل قوله :

عيون المهابين الرصافة والجسر جلبـــن الهوى من حيث أدرى ولا أدرى

٣ــ ومظاهر النشاط الاقتصادى تطبع اللغة كذلك بطابع خاص فى مفرداتها ومعانيها وأساليبها وتراكيبها . ومن ثم اختلفت مظاهر اللغة فى الأمم والمناطق تبعا لاختلافها فى نوع الانتاج ، ونظم الاقتصاد ، وشئون الحياة المادية ، والمهنة السائدة (الزراعة ، الصناعة ، التجارة ، الصيد ، رعى الانعام .. الخ) . وقد تؤثر هذه المظاهر فى أصوات اللغة نفسها . فقد يؤدى نوع العمل الذى يزاوله سكان منطقة ما إلى تشكيل أعضاء نطقهم فى صورة خاصة تتأثر بها مخارج الحروف ونبرات الألفاظ ومناهج التطور الصوتى .

٤ــ واللغة مرآة ينعكس فيها كذلك ما يسير عليه الناطقون بها فى شئونهم الاجتماعية العامة . فعقائد الأمة وتقاليدها ، وما تخضع له من مبادىء فى نواحى السياسة والتشريع والقضاء والأخلاق والتربية وحياة الأسرة ، وميلها إلى الحرب أو جنوحها إلى السلم ، وما تعتنقه من نظم بصدد الموسيقى والنحت والرسم والتصوير والعمارة وسائر انواع الفنون الجميلة .. كل ذلك وما إليه يصبغ اللغة بصبغة خاصة فى جميع مظاهرها : فى الأصوات والمفردات والدلالة والقواعد والأساليب .. وهلم جرا . واليك مثلا درجة القرابة التى تربط الفرد بكل من أسرة أبيه وأسرة أمه . فإن الأمم التى تسير نظمها الاجتماعية على إنزال هاتين الأسرتين

منزلة واحدة تقريبا فى درجة قرابتهما للفرد تطلق لغتها كلمة واحدة على كل من العم أو الخال oncle, uncle ، والعمة والخالة tante, aunt ، وابن العم أو العمة وابن الخال أو الخالة cunsin ، وابنة العم أو العمة وابنة الخال أو الخالة cousine .

على حين أن الأمم التى تفرق نظمها الاجتماعية بين هاتين الأسرتين فى درجة قرابتهما للفرد تختلف فى لغتها الكلمات الدالة على أفراد أسرة الأب عن الكلمات الدالة على أفراد أسرة الأم : العم ، الخال ، العمة ، الخالة ، ابن العم ، ابن العمة ، ابن الخال ، ابن الخالة ، بنت العم ، بنت العمة ، بنت الخال ، بنت الخالة .... واليك مثلا آخر مبلغ اتجاه الأمة إلى مبادىء المساواة أو انحرافها نحو نظام الطبقات . فإن ما تسير عليه نظمها الاجتماعية بهذا الصدد يؤثر فى مختلف نواحى لغتها حتى فى ناحية القواعد . فمخاطبة الفرد بضمير الجمع تعظيما له : (أرجو أن تتفضلوا ...) واجراء الخطاب فى صيغة الإخبار عن الغائب : (يتفضل سيدى ...) ، كل ذلك وما إليه من أساليب التبجيل لا يبدو فى اللغة إلا حيث ينحرف الناس عن مبادىء المساواة وتكثر الفوارق بين الطبقات . ولذلك يعد تطور هذه الضمائر فى أمة ما أصدق سجل لتطور اتجاهاتها فى هذه الشئون . فالصراع فى اللغة الفرنسية بين "t u" و Vous (أنتم) ، فى مخاطبة الفرد ، يمثل أصدق تمثيل مراحل الصراع بين روح المساواة ونظام الطبقات فى الشعب الفرنسى . فقد كانت الغلبة للضمير الأول فى العصور التى سادت فيها مبادىء المساواة ، وللضمير الثانى فى العصور التى وهنت فيها هذه المبادىء ، ومثل هذا يقال فى اللغة العربية . فقد كان العرب فى جاهليتهم من أكثر الشعوب ميلا إلى المساواة بين الأفراد ، ولذلك ساد فى خطابهم ضمير المفرد ، ولم تبد فى لغتهم مظاهر المبالغة فى التبجيل . وقد سار القرآن على هذه الطريقة حتى فى توجيه الخطاب إلى الله عز وجل . ولكنهم لم يلبثوا بعد اتساع ملكهم ، واحتكاكهم بالأمم الأخرى ، وانغماسهم فى الترف ، ومحاكاتهم لأبّهة الفرس وأساليبهم فى الحياة ، واتجاه خاصتهم وأغنيائهم إلى الترفع عن الدهماء وطبقات المستضعفين ، لم يلبثوا بعد هذا أن انحرفوا عن مبادئهم الأولى ، فانحرفت معهم أساليب لغتهم ، وساد فيها خطاب المفرد بضمير الجمع وإجراء الخطاب فى صيغة

الاخبار عن الغائب ، ونفذت اليها الفاظ « الحضرة » و « الجنات » .. وما الى ذلك .

٥ــ وكثيرا ما ينجم عن اختلاف الناس فى طبقاتهم وفئاتهم اختلاف مدلول الكلمات وخروجها عن معانيها الأولى . ويؤدى الى ذلك ما يوجد بين الجماعات الناطقة باللغة الواحدة من فروق فى الخواص النفسية ، وفى شئون السياسة ، والاجتماع ، والثقافة ، والتربية ، ومناحى التفكير والوجدان ، ومستوى المعيشة ، وحياة الأسرة ، والتقاليد والعادات ... وما تزاوله كل طبقة من أعمال ، وتضطلع به من وظائف ، والآثار العميقة التى تتركها كل وظيفة ومهنة فى عقلية المشتغلين بها ، وحاجة أفراد كل طبقة إلى دقة التعبير وسرعته وإنشاء مصطلحات خاصة بصدد الأمور التى يكثر ورودها فى حياتهم وتستأثر بقسط كبير من انتباههم ، وما يلجئون إليه من استخدام مفردات فى غير ما وضعت له أو قصرها على بعض مدلولاتها للتعبير عن أمور تتصل بصناعاتهم وأعمالهم .. وهلم جرا . فمن الواضح أن هذه الأمور وما إليها من شأنها أن تخرج بالكلمات عن مدلولاتها الأولى ، وتوجه معانيها فى كل طبقة وفى كل جماعة وجهة تختلف عن وجهتها عند غيرها .

٦ــ وتتشكل اللغة كذلك بالشكل الذى يتفق مع اتجاهات الأمة العامة وتغلب الناحية المادية أو الأدبية على شئون حياتها . فاتجاه الإنجليز مثلا إلى الناحية العملية قد صبغ لغتهم بصبغة مادية فى مفرداتها وتراكيبها ، حتى إنه ليقال فيها : « **دفع** زيادة أو تحية أو شكرا أو انتباها » . وكيف استطيع أن **ادفع** لك مقابل أياديك على ، و « **أنفق** وقته فى كيت وكيت » و « **تربح** الساعة أو **تخسر** » .

To **pay** visit, compliments, attention''. ''How can I **pay** you for all your goods''. He **spent** his time in. The watch **gains** or **loses**.

بدلا من « ادى زيارة » و « قدم تحية أو شكرا » و « أبدى انتباها » ، ولا أستطيع أن أرد لك مقابل أياديك على ، و « قضى وقته فى عمل ما » و « الساعة تقدم أو تؤخر » .

٧ــ وما يكون عليه الأفراد من حشمة وأدب فى شئونهم ومعاملاتهم وعلاقاتهم بعضهم ببعض ينبعث كذلك صداه فى لغتهم ألفاظها وتراكيبها . فاللغة اللاتينية لا تستحى أن تعبر عن العورات والأمور المستهجنة والأعمال الواجب سترها بعبارات مكشوفة ، ولا أن تسميها باسمائها الصريحة ، على حين أن اللغة العربية بعد الإسلام تتلمس أحسن الحيل وأدناها إلى الحشمة والأدب فى التعبير عن هذه الشئون ، فتلجأ الى المجاز فى اللفظ ، وتستبدل الكناية بصريح القول : القبل ، الدبر ، قارب النساء ، لمس امرأته ، قضى حاجته ... الخ ، ولقد كان لها بهذا الصدد فى الفاظ القرآن الكريم وعباراته أسوة حسنة : « نساؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم إنّى شئتم » ، « وقد أفضى بعضكم إلى بعض » ، « أحل لكم ليلة الصيام الرفث إلى نسائكم » ، « فاعتزلوا النساء فى المحيض » ، « والذين يظاهرون من نسائهم ثم يعودون لما قالوا فتحرير رقبة من قبل أن يتماسا » ... وما إلى ذلك من كريم العبارات ونبيل الألفاظ . وما يبدو فى اللغة العربية بهذا الصدد يبدو مثله فى اللغات الأوربية الحديثة وخاصة الشمالية منها . وأكثرها تحرجا فى هذه الناحية اللغة الانجليزية . فالبطن مثلا لا يعبر عنه فى لغة التخاطب الانجليزية باسمه الصريح بل يطلاق عليه فى الغالب : the stomace (اى المعدة) ، وسراويل الرجل تطلق عليها أحيانا كلمة معناها الأصلى « ما لا يمكن التعبير عنه : Inexprissible » ، وسراويل المرأة يطلق عليها كلمة معناها الأصلى « الجمع أو التركيب Comaination .. وهلم جرا .

٨ــ ويتطور مدلول الكلمة فى لغة ما تبعا لتطور الشئون الاجتماعية المحيطة بهذا المدلول . فكل تطور من هذا القبيل يتجه بمدلول الكلمة وجهة خاصة ، وينحرف به قليلا أو كثيرا عن أوضاعه الأولى . والأمثلة على ذلك تجل عن الحصر فى اللغة العربية وفى غيرها من اللغات . فكلمة « القطار » مثلا كانت تطلق فى الأصل على عدد من الإبل على نسق واحد تستخدم فى السفر وفى النقل ، ولكن تغير الآن مدلولها الأصلى تبعا لتطور وسائل المواصلات ، فأصبحت تطلق على مجموعة عربات تقطرها قاطرة بخارية . وكلمة « البريد » كانت تطلق على الدابة

التى تحمل عليها الرسائل ، ثم تغير الآن مدلولها تبعا لتطور الطرق المستخدمة فى إيصال الرسائل ، فاصبحت تطلق على النظم والوسائل المتخذة لهذه الغاية فى العصر الحاضر . وكلمة الريشة Plume كانت تطلق على آلة الكتابة أيام كانت تتخذ من ريش الطيور ، ولكن تغير الآن مدلولها الأصلى تبعا لتغير المادة المتخذة منها آلة الكتابة ، فاصبحت تطلق على قطعة من الحديد مشكلة فى صورة خاصة . وعبارة « بنى الرجل على امرأته » كانت تستخدم كناية عن دخوله بها ، لأن الشاب البدوى كان إذا تزوج يبنى له ولأهله خباء جديدا ، ولكنها فقدت الآن معناها الأصلى لانقراض هذا النظام ، وإن كانت لا تزال تستخدم كناية عن الزفاف . وقد جرت العادة فى بعض العصور بفرنسا أن يقضى المحكوم عليه بالاشغال الشاقة مدة عقوبتهم فى اعمال التجديف على ظهر السفن الملكية ، ومن ثم جاءت عبارة envoyer aux guleres وجاء وصف gulérien ، ولكن تغير الآن مدلولها تبعا لتغير النظم المتصلة بهذه العقوبة ونوعها .

وكثر استخدام الكلمة فى مدلول ما ، لحدوث ما يدعو الى ذلك فى شئون الحياة الاجتماعية وما يتصل بها ، يجردها — مع تقادم العهد — من مدلولها الاصلى ويقصرها على الناحية التى كثر فيها استخدامها . فكثرة استخدام العام مثلا فى بعض ما يدل عليه ، لسبب اجتماعى ما ، يزيل مع تقادم العهد عموم معناه ، ويقصر مدلوله على الحالات التى شاع فيها استعماله . ولدينا فى اللغة العربية وحدها آلاف من أمثلة هذا النوع ، فمن ذلك جميع المفردات التى كانت عامة المدلول ثم شاع استعمالها فى الإسلام فى معانٍ خاصة تتعلق بالعقائد أو الشعائر أو النظم الدينية : كالصلاة والحج والصوم والمؤمن والكافر والمنافق والركوع والسجود .. وهلم جرا .. فالصلاة مثلا معناها فى الأصل الدعاء ثم شاع استعمالها فى الإسلام فى العبادة المعروفة لاشتمالها على مظهر من مظاهر الدعاء ، حتى اصبحت لا تنصرف عند اطلاقها الى غير هذا المعنى ، والحج معناه فى الأصل قصد الشىء والاتجاه اليه ، ثم شاع استعماله فى قصد البيت الحرام ، حتى أصبح مدلوله الحقيقى مقصورا على هذه الشعيرة .. وقس على ذلك جميع افراد هذه الطائفة . ومن ذلك أيضا كلمة « الرث » ، فقد كانت تطلق على الخسيس

من كل شىء ، ثم قصر مدلولها على الخسيس مما يفرش أو يلبس لكثرة استخدامها فى هاتين الطائفتين ، وكلمة « المدام » فهى فى الأصل كل ما سكن ودام ، ثم شاع استعمالها فى الخمر لدوامها فى الدن أو لأنه يغلى عليها حتى تسكن ، فاصبحت لا تنصرف الى غير هذا المعنى .

وكثرة استخدام الخاص فى معان عامة عن طريق التوسع لسبب اجتماعى ما تزيل مع تقادم العهد خصوص معناه وتكسبه العموم . فمن ذلك مثلا فى اللغة العربية كلمات : البأس والورد والرائد والنجعة .. وهلم جرا .. فالبأس فى الأصل الحرب ، ثم كثر استخدامه فى كل شدة فاكتسب من هذا الاستخدام عموم معناه ، واصل الورد إتيان الماء وحده ، ثم صار اتيان كل شىء وردا لكثرة استخدامه فى هذا المعنى ، والرائد فى الأصل طالب الكلأ ثم صار طالب كل حاجة رائدا ، والنجعة فى الأصل طلب الغيث ، ثم عممت فى الاستخدام فاصبح كل طلب انتجاعا . ومن ذلك فى اللغة الفرنسية كلمة salaire فقد كان معناها فى الأصل — كما تدل على ذلك بنيتها — ما يصرف للجندى من نقود فى نظير ما يحتاج إليه من ملح الطعام ، ثم شاع استعمالها فى كل أجرة حتى نسى معناها الأصلى ، وكلمة arriver : فقد كانت تدل فى الأصل كما تشير الى ذلك بنيتها — على الوصول الى الشاطىء ، ثم شاع استعمالها فى كل وصول ، فاستقر معناها على هذا الوضع العام .

وكثرة استخدام الكلمة فى معنى مجازى لسبب اجتماعى يؤدى غالبا إلى انقراض معناها الحقيقى وحلول هذا المعنى المجازى محله . فمن ذلك مثلا فى اللغة العربية كلمات المجد والأَفَن والوغى والغفران والعقيقة .. وهلم جرا .. فالمجد معناه فى الأصل امتلاء بطن الدابة بهن العلف ، ثم كثر استخدامه مجازا فى الأمتلاء بالكرم حتى انقرض معناه الأصلى وأصبح حقيقة فى هذا المعنى المجازى ، ولهذا السبب نفسه انتقل معنى « الأَفَن » من قلة لبن الناقة إلى نقص العقل ، وانتقل معنى « الوغى » من اختلاط الأصوات فى الحرب الى الحرب نفسها ، ومعنى « الغفر » و « الغفران » من الستر إلى الصفح عن الذنوب ، ومعنى « العقيقة »

من الشعر الذى يخرج على الولد من بطن امه الى ما يذبح عند حلق ذلك الشعر .

واستخدام الكلمة فى فن ما بمعنى خاص يجردها فى هذا الفن من معناها اللغوى ويقصرها على مدلولها الاصطلاحى . ويدخل فى هذا مصطلحات الآداب والفلسفة والقانون والاجتماع والعلوم والفنون .. وما إلى ذلك . ومن ثم نرى أن الكلمة الواحدة تستعمل فى الشعر بمعنى ، وفى الرسائل بمعنى آخر ، وفى السياسة بمعنى ثالث ، وفى الفنون الحربية بمعنى رابع ، وفى القانون بمعنى خامس ، وفى الطبيعة بمعنى سادس ، وفى الطب بمعنى سابع ... وهلم جرا ..

٩ــ وإلى مقتضيات الحياة الاجتماعية وشئونها ، ترجع كذلك أهم الأسباب فى نشأة كلمات لم تكن موجودة فى اللغة من قبل ، وفى هجر كلمات كانت مستخدمة فيها أو انقراضها انقراضا تاما . فأهم العوامل التى تدعو الى نشأة كلمات فى اللغة ترجع الى مقتضيات الحاجة إلى تسمية مستحدث اجتماعى جديد : نظام حديث فى الشئون الاجتماعية ، أو الاقتصادية أو غيرها ، نظرية جديدة علمية أو فلسفية ، مخترع مادى جديد .. وهلم جرا ، وأهم العوامل التى تؤدى الى انقراض كلمة من الاستعمال ترجع الى انقراض مدلولها نفسه من نطاق الحياة الاجتماعية أو إلى عدم استخدامه . ويصدق هذا على الملابس والأثاث وعدد الحرب ووسائل النقل وآلات الصناعة والمقاييس والنقود ومظاهر النشاط والنظم الأجتماعية التى انقرضت أو بطل استخدامها فانقرضت معها المفردات الدالة عليها . فقد انقرض فى العربية كثير من الكلمات الدالة على نظام جاهلية قضى عليها الاسلام ، كالمِرْباع والصَّرورة والنَوافِج . وانقرض فى الفرنسية لهذا العامل وما يتصل به كلمات كثيرة منها :

Veste, casaquin, cabat, carosse, soupentes, briquel, pacotille, corvette, frégate, brulot, boulet, arpent, lra liard, toise... etc.

١٠ــ وللشئون الاجتماعية أثر كبير كذلك فى صراع اللغات الناشىء عن نزوح عنصر اجنبى إلى البلد يتكلم بلغة غير لغة اهلية ، على أثر هجرة أو فتح أو

استعمار ، وفيماينتهى اليه هذا الصراع من تغلب احدى اللغتين المتصارعتين على الأخرى أو بقائهما معا جنبا إلى جنب مع تبادل التأثر والتأثير .

فاذا لم يكن لكلا الشعبين اللذين تتصارع لغتاهما حضارة يعتد بها ، ويزيد عدد افراد احدهما عن الأخرى زيادة كبيرة . ففى هذه الحالة تتغلب لغة اكثرهما عددا ، سواء أكانت لغة الاصيل أم الدخيل ، لغة الغالب حربيا أم المغلوب . وذلك انه عند انعدام النوع ، وهو ما تمثله الحضارة ، يتحكم الكم فى مصير الأمور . والأمثلة على ذلك كثيرة فى التاريخ . فمن ذلك أن النورماديين حينما اغاروا على انجلترا فى منتصف القرن التاسع الميلادى ، واحتلوا معظم مناطقها ، لم تلبث لغة الشعب المقهور أن تغلب على لغتهم ، فاصبح جميع السكان ، أصيلهم ودخيلهم ، انجليزيهم ونورمانديهم ، يتكلمون الانجليزية السكسونية . وذلك لأن الانجليز المغلوبين كانوا يزيدون زيادة كبيرة فى عددهم عن النورمانديين الغالبين ، ولم يكن لأحدهما حضارة يعتد بها ، تتحكم الكم فيما انتهى اليه الصراع .

واذا كان الشعب الغالب أرقى من الشعب المغلوب فى حضارته وثقافته ، وأشد منه باساً وأوسع نفوذا فان النصر يكتب للغته وإن قل عدد افراده عن أفراد الشعب المغلوب ، على شريطة أن تدوم غلبته وقوته مدة كافية ، وأن تقيم بصفة دائمة جالية يعتد بها من افراده فى بلاد الشعب « المغلوب » ، وأن تمتزج هذه الجالية بأفراد هذا الشعب ، وأن تكون اللغتان من شعبة لغوية واحدة وأن تمتزج هذه الجالية بأفراد هذا الشعب ، وأن تكون اللغتان من شعبة لغوية واحدة أو من شعبتين متقاربتين تجمعهما قضية واحدة . والامتلاك فى عدد كبيرة فى فى التاريخ ، فقد نجم عن فتوح الرومان فى وسط أوروبا وشرقها أن تغلبت لغتهم اللاتينية على اللغات الأصلية لايطاليا وفرنسا واسبانيا والبرتغال ورومانيا مع أن الرومان المغيرين كانوا فى هذه البلاد اقلية بالنسبة إلى سكانها الاصليين . وقد توافرت الشروط التى ذكرناها فى هذه الحالة . فقد دامت غلبة الرومان فى هذه البلاد مدة كافية ، وأقامت بصفة دائمة جالية يعتد بها من الرومان ، فى هذه البلاد . وامتزجت بافراد الشعوب المغلوبة ، وكانت اللغتان وهما اللاتينية للرومان

والكلتية للشعوب المغلوبة من فصيلة لغوية واحدة ، وهى الفصيلة الهندية ــ الأوروبية ، وكان الشعب الغالب ــ وهم الرومان ــ ارقى من الشعوب المغلوبة فى حضارته وثقافته وآداب لغته ، وأشد منه باسا وأوسع نفوذا . وقد نجم عن فتوح العرب المسلمين فى آسيا وأفريقيا أن تغلبت لغتهم على كثير من اللغات السامية الأخرى وعلى اللغة القبطية فى مصر والبربرية فى شمال افريقيا فاصبحت اللغة العربية لغة الحديث والكتابة فى معظم مناطق شبه الجزيرة العربية وفى مصر والسودان وشمال افريقيا ، مع أن الجالية العربية فى هذه البلاد كان عددها أقل كثيرا من عدد السكان الأصليين . وقد توافرت الشروط التى ذكرناها فى هذه الحالة . فاللغة العربية ، وهى لغة الشعب الغالب ، كانت ارقى كثيرا من لغات هذه الشعوب ، وقد دخلت هذه البلاد وبين يديها تراث لغوى مجيد على رأسه القرآن الكريم واحاديث الرسول عليه السلام والأدب الجاهلى والإسلامى . وكان الشعب العربى نفسه حينئذ أرقى كثيرا من هذه الشعوب فى حضارته وتراثه وأشد منها بأسا وأوسع نفوذا ، وقد دامت غلبته وقوته مدة كافية ، وأقامت بصفة دائمة جالية يعتد بها من افراده فى بلاد الشعوب المغلوبة وامتزجت بافراد هذه الشعوب ، وزاد امتزاجها بهم بعد أن دخلوا الإسلام ، وكانت اللغة العربية ولغات هذه الشعوب من فصيلة لغوية واحدة ، وهى الفصيلة السامية ــ الحامية .

واذا لم يتوافر شرط من الشروط السابق ذكرها والتى يتوقف عليها تغلب إحدى اللغتين على الأخرى فانهما تعيشان معا جنبا الى جنب مع تبادل التأثر والتأثير .

والأمثلة على ذلك كثيرة فى تاريخ الأمم المغايرة وفى العصر الحاضر . فاللغة اللاتينية لم تقو على التغلب على اللغة الاغريقية ، مع أن الأولى كانت لغة الشعب الغالب ، وكانت اللغتان من فصيلة واحدة ، وهى الفصيلة الهندية ــ الاوروبية . وذلك لأن الإغريق مع خضوعهم حربيا وسياسيا للرومان ، كانوا أعرق منهم حضارة وأوسع ثقافة وأرقى لغة .

وقد سبق أن انهزام لغة الشعب المغلوب أمام لغة الشعب الغالب لا يحدث إلا إذا كان الشعب الثانى أرقى من الشعب الأول فى جميع هذه الأمور ، واللغة العربية

لم تقو على الانتصار على اللغة الفارسية على الرغم من فتح العرب لبلاد فارس وبقائها تحت سلطانهم أمداً طويلا . وذلك لأن حضارة الشعب الفارسى لم تكن حينئذ أقل من حضارة العرب إن لم تكن أرقى منها ، هذا إلى أن كلتا اللغتين تنتمى إلى فصيلة لغوية غير الفصيلة التى تنتمى إليها اللغة الأخرى . فالعربية من الفصيلة الساميَّة والفارسية من الفصيلة الهندية ــ الأوربية .

وإذا هاجر شعب من منطقته إلى منطقة أخرى وأنبتَّ عن إخوته ، وأحيط بشعوب تستخدم لغة أخرى غير لغته ، فإن لغة هذه الشعوب لا تلبث أن تتغلب على لغته ولو كانت من فصيلة أخرى غير فصيلته . ومن أمثلة ذلك أهل بلغاريا ، فانهم حينما نزحوا من شمال أوربا إلى البلقان بعدوا بعداً كبيرا عن اخوانهم الذين يتحدثون باللغات الفينية ، وأحيطوا من جميع جهاتهم بشعوب صقلبية ، وأتيح لهم الامتزاج بهذه الشعوب امتزاجا كبيرا ، فاخذت لغتهم تنهزم شيئا فشيئا امام لغات هذه الشعوب حتى انقرضت وحل محلهم لسان صقلبى . وهكذا يكون الجزاء للمنبت عن اخوته حضاريا .

وإذا تقوقع مجتمع ما فى منطقته ، وضعف اتصاله الحضارى ببقية سكان البلد ، فانه يظل محافظا على لغته ولا يخضع لقوانين الصراع اللغوى . والأمثلة على ذلك كثيرة فى التاريخ .

ومن ذلك أنه يظهر أن بنى اسرائيل فى مصر قد ظلوا محافظين على لسانهم العبرى يتخاطبون به فيما بينهم فى أثناء مقامهم الطويل فى مصر الذى امتد إلى أكثر من اربعة قرون ، وأنه ظل لسانهم بعد أن خرجوا من مصر مع موسى عليه السلام ، وذلك مع الممهم باللغة المصرية وتفاهمهم بها مع بقية السكان ، مع أن القانون كان يقضى بتغلب اللسان المصرى على ألسنتهم . ويظهر أن السبب فى ذلك يرجع إلى العادة الإسرائيلية التى ظلت ملازمة لهم الى الوقت الحاضر ، والتى تتمثل فى قوقعتهم فى شوارع وحارات فى المدن التى يسكنونها أو يهاجرون اليها ، وحفاظهم فى هذه الشوارع والحارات على تقاليدهم ولغتهم .

ومن ذلك أيضا أهل بلاد النوبة فى مصر ، فإن تقوقعهم فى مناطقهم جنوبى

مصر كان له أثر كبير فى احتفاظهم بلغتهم وعدم تأثرهم باللغة العربية التى تغلبت على ألسنة بقية سكان مصر . هذا إلى اختلاف فصيلة لغتهم عن فصيلة اللغة العربية .

ومن ذلك أيضا أن اللغة العربية لم تستطع التغلب على اللغات البربرية فى بعض المناطق فى شمال افريقيا فلا يزال إلى الوقت الحاضر عدد غير يسير من سكان المغرب والجزائر وتونس يستخدمون فى تخاطبهم بعضهم مع بعض لهجاتهم البربرية القديمة ، وإن كانوا يستخدمون العامية العريقة فى تخاطبهم مع أهل البلاد ، مع أن اللغة العربية قد تغلبت على معظم البلاد البربرية ، ومع إنتماء اللغتين الى فصيلة واحدة وهى الفصيلة السامية الحامية — ولعل السبب فى ذلك يرجع إلى تقوقع السكان فى هذه المناطق وعدم امتزاجهم امتزاجا كبيرا ببقية السكان .

ومن ذلك أيضا جماعة البربتون فى الجنوب الغربى لفرنسا فى محافظة اللوار الأدنى على سواحل المحيط الأطلسى ، فأن تقوقعهم فى منيطقتهم كان له أثر كبير فى احتفاظهم بلغتهم الكلتية ، وعدم تأثرهم باللغة اللاتينية ولا باللغة الفرنسية التى انشعبت عن اللاتينية ، وإن كانت لغتهم هذه قد اخذت فى الانقراض . فقد زرت هذه المناطق وقضيت فيها عدة أسابيع متنقلا فى بلادها فلم أسمع هذه اللهجة إلا عند طائفة من الشيوخ . وحتى هؤلاء انفسهم لا يتكلمون بلهجتهم هذه إلا فيما بينهم . وأما مع غيرهم فيتكلمون الفرنسية ، ولكن ينال كلماتها وتراكيبها فى السنتهم كثير من التحريف ، كما تحرف العربية فى السنة النوبيين . وقد انقرضت هذه اللهجة انقراضا تاما من لغة الكتابة والأدب ، وانقرضت كذلك من لغة التخاطب بين أبناء الجيل المعاصر .

أ.د. على عبد الواحد وافى
الأستاذ غير المتفرغ بكلية الآداب
جامعة الأسكندرية

أهم مراجع البحث

عنوان الكتاب	المؤلف
اللغة والمجتمع	أ.د. على عبد الواحد وافى
علم اللغة	أ.د. على عبد الواحد وافى
فقه اللغة	أ.د. على عبد الواحد وافى
الصاحبى فى فقه اللغة وسنن العرب فى كلامها	ابن فارس
فقه اللغة	الثعالبى
شواء الفتيل فيما ورد فى كلام العرب من الدخيل	شهاب الدين الخفاجى
المزهر فى علوم اللغة وانواعها	السيوطى

Derla Croix: le langage et. la pensée
Dausat: philoshophie du langage
Dausat: le vie du langage
P ibot; L'Evolution des idèes Générales
Mei-Ilet: Comment les mots changent de Sens (dans L'année Socicloyè ue T. IX, pp. 333).
Vannier, L'Esprit et les Moeurs d'une nation d'après sa langue (Revue pedagogique 1907, T.2 p.p. 434-643).